

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس : 3 - سورة الحج - تفسير الآية 11

24-05-1995

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمنا إنك أنت العليم الحكيم اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزرنا علما، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا من يسْمَعونَ القولَ فَيَتَّعَونَ أَحْسَنَهُ وَأَدْخِلْنَا برحمتك في عبادك الصالحين.

أيها الأخوة الكرام، الآية الحادية عشرة من سورة الحج يصف الله فيها نموذجاً مُتَكَرِّراً تَجْدُهُ في كل زمانٍ ومكان، وهذا النموذج هو الإنسان الذي لا يُفْلِي على الدين إلا من أجل مكاسب ماديَّة، فإذا انقطعَتْ هذه المكاسب أدار ظهره للدين، وهذا النموذج خطير، قال تعالى:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَانَ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ
خَسَرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (11))

[سورة الحج]

مِنْ لِلتبَيِّضِ أَيْ بَعْضٍ وَمَا الَّذِي يُقَابِلُ الْحَرْفَ؟ الأَعْمَاقُ، مُؤْمِنٌ فِي الْأَعْمَاقِ، وَمُؤْمِنٌ عَلَى حِرْفٍ، وَمُؤْمِنٌ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ، فَلَوْ جَاءَتْ مَوْجَةٌ عَاتِيَّةٌ لَجَرَّاثَةٍ إِلَى الْبَحْرِ، وَمُؤْمِنٌ فِي رَأْسِ جَبَلٍ مَهْمَا طَغَى الْمَوْجُ فِي الْأَعْمَاقِ وَفِي الْمَرْفَعَاتِ، قَالَ تَعَالَى:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَانَ بِهِ)

[سورة الحج]

ما دام الصِّحة طَيِّبة، وَالْمَالُ وَفِيرٌ، وَالْأَمْرُ مُنْتَظَمٌ، فَأَعْظَمُ شَيْءَ الْإِسْلَامِ، مَدْحُوَّةٌ لِلَّدِينِ مَبْنِيَّ عَلَى الْمَصَالِحِ، هَلْ سَمِعْتُمْ بِرِبِّكُمْ إِنْسَانًا يُمْتَحَنُ مَرْكَبَةً فِي النَّزُولِ؟ كُلُّ الْمَرْكَبَاتِ فِي النَّزُولِ تَنْطَلِقُ سَرِيعَةً لَكُلِّ الْمَرْكَبَاتِ ثُمَّ تُمْتَحَنُ فِي الصُّعُودِ، يُمْتَحَنُ قَوَّةً مَحِرَّكَاهَا، وَتَجَاوِبُهَا مَعَ سَائِقَهَا، هَذَا يُمْتَحَنُ فِي الصُّعُودِ، لَذَلِكَ إِذَا تَوَهَّمَ أَحَدُكُمْ، وَأَنَا مَعَكُمْ أَنَّهُ يُمْكِن لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَعِيشَ عُمْرَةً كُلَّهُ مِنْ دُونِ امْتِحَانٍ فَهُوَ وَاهِمُ، قَالَ تَعَالَى:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتَرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2))

[سورة العنكبوت]

هل هناك جامعة في الأرض تمنح أعلى شهادة على طلب يقدمه الطالب يرجى منحي شهادة الدكتوراه
بلا امتحان ! قال تعالى:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ(2))

[سورة العنكبوت]

صحابة النبي عليه الصلاة والسلام ومعهم رسول الله يوم حنين الله قال تعالى:
(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذَا أَعْجَبْتُمْ كُثُرًا ثُمَّ لَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحِبَتْ ثُمَّ وَلَيْتُمْ
مُدْبِرِينَ(25))

[سورة التوبة]

صحابة رسول الله في معركة الخندق قال تعالى:
(وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ(61))

[سورة المائدة]

و قال تعالى:

(وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا(12))

[سورة الأحزاب]

قال أحدهم: أيدعنا أصحابكم - ما قال رسول الله - أن تفتح.. حاجته" قال تعالى:
(هُنَالِكَ ابْنَى الْمُؤْمِنُونَ وَزُلِّذُوا زُلْزَالًا شَدِيدًا(11))

[سورة الأحزاب]

و قال تعالى:

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهُ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا
تَبْدِيلًا(23))

[سورة الأحزاب]

فإذا كان أصحاب رسول الله برفعة منزلتهم وشدة إخلاصهم وفيهم رسول الله وخضعوا للامتحان و الله
نصرهم وأعزهم، ففي حنين لم يبق أحد مع رسول الله قال رجل للبراء ابن عازب رضي الله عنه:
(أَفَرَزْتُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ حُنَيْنٍ قَالَ لَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
لَمْ يَفِرْ إِنَّ هَوَازِنَ كَانُوا قَوْمًا رُمَادًا وَإِنَّا لَمَا لَقِيَاهُمْ حَمَلْنَا عَلَيْهِمْ فَانْهَزَمُوا فَأَقْبَلَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْقَانِيمِ
وَاسْتَقْبَلُونَا بِالسِّهَامِ فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ قَلَمْ يَفِرْ فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ وَإِنَّهُ لَعَلَى بَغْتَتِهِ الْبَيْضَاءِ

* وَإِنَّ أَبَا سُفِيَّانَ آخِذٌ بِلِجَامِهَا وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذَبٌ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ *
أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذَبٌ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ))

[رواہ البخاری]

و مع ذلك الامتحان قائم فهل يعقل أن يختفى بنا لنصلی، لا بد من أن تمحن، فالإنسان يمتحن في صحته و في ماله وفي زوجته وفي غلق الطرق عليه، يفتح بابا حرام ؟ لا، تجوع الحرمة و لا تأكل بثدييها لذلك ما ترك العبد شيئاً لله إلا عوّضه الله خيراً منه في دينه و دنياه ومن ابتغى أمراً بمعصية كان أبعد مما رجا وأقرب مما اتقى، فهذا النموذج المتكرر، قال تعالى:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ)

[سورة الحج]

رجل له والدة خدمها اثنى عشرة سنة، ثم صاق بها ذرعاً فرفع صوته عليها، فقال لها: أنا لست ابنك الوحيد اذهب إلى فلان أخي فبكت و استدعت أخاه وقالت له: خذني لعنك، وبعد يومين توفاها الله، فهدم عمل اثنى عشرة سنة، و أعرف رجلاً يرعى أرملة في غرفة في المسجد ثلاثين عاماً، وكان ساكناً في المهاجرين ثم انتقل إلى المزة، و عمره سبعين سنة، يومياً يتوجه من المزة إلى المهاجرين ليرعى هذه المرأة العاجزة، أهلها أقاموا عليه النكير و طلبوا منه التوقف عن ذلك فأبى وقال: هذا عمل أكرمني الله به، فلما رأوا إصراره و ثباته على رعيتها و أشفقوها عليه قالوا له: ائت بها إلينا، فجاءوا بها إلى البيت بعد يومين توفاها الله، كسب ثلا ثين سنة من عمل خالص، فنحن جميعاً نخضع للامتحان، و البطولة أن تقول: إلهي أنت مقصودي و رضاك مطلوب .

الحقيقة كلنا في الرخاء و البحبوحة و الصحة ليس هناك مشكلة، أنا أريد أن أعرف الإنسان ماذا يقول إذا ابتلاء الله بيلاء قال تعالى:

(وَلَبَلُونَكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَفْسٍ مِّنْ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشَّرَ الصَّابِرِينَ (155) إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهَنْدُونَ (157))

[سورة البقرة]

هذه للمؤمنين بدليل أن الله قال قبلها:

(فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِي (152))

[سورة البقرة]

فَلَذِكْ دَقَّوْا ؛ إِذَا أَحَبَ اللَّهُ عِبْدًا ابْتَلَاهُ فَإِنْ صَبَرَ اجْتَهَاهُ فَإِنْ شَكَرَ افْتَنَاهُ وَإِذَا أَحَبَ اللَّهُ عِبْدًا عَجَّلَ لَهُ بِالْعِقْوَبَةِ، جَعَلَ حَوَاجِنَ النَّاسِ إِلَيْهِ، وَإِنَّ اللَّهَ لِيَحْمِي صَفِيهِ مِنَ الدُّنْيَا كَمَا يَحْمِي أَحَدَكُمْ مِنِ الطَّعَامِ، وَإِنَّ اللَّهَ يَحْمِي عِبْدَهُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الدُّنْيَا كَمَا يَحْمِي الرَّاعِي الشَّفِيقَ غَنْمَهُ مِنْ مَرَاطِعِ الْهَلَاكِ، فَلَا بدَّ مِنْ أَنْ نَمْتَحِنَ، سُئِلَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ: أَنْدَعُوا اللَّهَ بِالْابْتِلَاءِ أَمْ بِالْتَّمْكِينِ؟ قَالَ: لَنْ تُمْكِنُوا حَتَّى تُثْبَلُوا، قَالَ تَعَالَى:

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَنْمَاءَ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (24))

[سورة السجدة]

(وَإِذَا ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمَنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنْالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (124))

(سورة البقرة)

وَإِذَا كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَنْجُو إِنْسَانٌ وَاحِدًا مِنَ الْامْتِحَانِ لِنَجَا رَسُولُ اللَّهِ عَنْ أَنْسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَقَدْ أَخْفَثْتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ وَلَقَدْ أَوْذَيْتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِبَلَلٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بَلَلٍ))

[رواية الترمذى]

وَابْتَلَاهُ اللَّهُ بِالْطَّائِفِ، وَابْتَلَاهُ بِالْقَهْرِ وَبِالتَّكْذِيبِ وَالسُّخْرِيَّةِ وَالضُّرْبِ، ثُمَّ ابْتَلَاهُ بِالنَّصْرِ فِي مَكَّةَ، حِينَما دَخَلَ مَكَّةَ كَادَتْ ذُؤْبَةُ عَامَتْهُ تَلَامِسُ عَنْقَ بَعِيرَهُ تَوَاضَعَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، عَلَى خَلَافِ كُلِّ الْقَادِهِ الْفَاتِحِينَ فِي الْعَالَمِ، كُلُّهُمْ تَأْخُذُهُمْ نَشْوَهُ النَّصْرِ فَيَتَعَجَّرُوْنَ وَيَتَغَطَّرُوْنَ لَكُنَّ النَّبِيُّ دَخَلَ مَكَّةَ مَتَوَاضِعًا فَلَمَا قِيلَ لَهُ: مَا أَنْتَ فَاعِلُ بَنَا؟ قَالُوا أَخْ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخْ كَرِيمٍ، فَقَالَ: اذْهِبُوا فَأَنْتُمُ الْطَّلَقاءِ، أَمَا فِي الطَّائِفِ فَقَالَ اللَّهُمَّ أَشْكُو إِلَيْكَ ضَعْفَ قُوَّتِي وَقُلَّةَ حِيلَتِي وَهُوَانِي عَلَى النَّاسِ يَا رَبَّ إِلَى مَنْ تَكَلَّنِي؟ إِلَى عَدُوِّي يَتَجَهَّمْنِي إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أَبَالِي وَلَا العَتَبِيٌّ حَتَّى تَرْضَى لَكُنْ عَافِيَّتِكَ أَوْسَعُ، ثُمَّ امْتَحَنَهُ بِالْهَجْرَةِ، فَتَبَعَهُ سَرَاقَةٌ وَامْتَحَنَهُ فِي حَنِينٍ، فَالنَّبِيُّ امْتَحَنَ، كَانَ إِذَا دَخَلَ بَيْتَهُ يَقُولُ عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ:

((قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ يَوْمَ يَأْتِيَ شَيْءٌ هُنْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ قَالَتْ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عِنْدَنَا شَيْءٌ قَالَ فَإِنِّي صَائِمٌ قَالَتْ فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَهْدَيْتُ لَنَا هَدِيَّةً أَوْ جَاءَنَا زَوْرٌ قَالَتْ فَلَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَهْدَيْتُ لَنَا هَدِيَّةً أَوْ جَاءَنَا زَوْرٌ

وَقَدْ خَبَثُ لَكَ شَيْئًا قَالَ مَا هُوَ ثُلُثٌ حَيْسٌ قَالَ هَاتِيهِ فَجِنْثُ بِهِ فَأَكَلَ ثُمَّ قَالَ قَدْ كُنْتُ أَصْبَحْتُ صَانِمًا))

[رواه مسلم]

هل هناك بيت من إخواننا الحاضرين ليس فيه زيتونة واحدة؟ وقطعة خبز؟ امتحن بموت الولد، لما مات ولده إبراهيم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

((دَخَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَبِي سَيْفِ الْقَيْنِ وَكَانَ ظِلْنَرًا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَخْذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِبْرَاهِيمَ فَقَبَّلَهُ وَشَمَّهُ ثُمَّ دَخَلْنَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِبْرَاهِيمُ يَجْوُدُ بِنَفْسِهِ فَجَعَلْتُ عَيْنَاهُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَدْرِقَانِ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ يَا ابْنَ عَوْفٍ إِنَّهَا رَحْمَةٌ ثُمَّ أَبْعَهَا بِأُخْرَى فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ وَالْقَلْبَ يَحْزُنُ وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ))

[رواه البخاري]

وامتحن بموت الزوجة، وامتحن بقول الناس عن زوجته عائشة حين رموها بالفاحشة، من يحملها منكم؟ حديث الإفك

قال تعالى:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ(2))

[سورة العنكبوت]

و قال تعالى:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَدِئِينَ(30))

[سورة المؤمنون]

و قال تعالى:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوْكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْغَيْرُ الْغَافُورُ(2))

[سورة الملك]

آية اليوم هي قوله تعالى:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ أَطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكُ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (11))

[سورة الحج]